بو الأعلى المودودي

الحجاب

دار الفكر بدمشق

تعريب

محمد كاظم السباق

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لوليه والصلاة على نبيه والسلام على كل هاد إلى سويه .

وبعد ، فهذا كتاب ألفته قبل عشرين سنة تقريباً شرحاً لهدي الاسلام ونظامه لما بين الرجل والمرأة من العلاقة في الحياة الاجتماعية وتفنيداً لما قد راج بين المسلمين في هذا العصر من الآراء الباطلة والعادات السيئة والمناهج الموبقة في هذا الباب محاكاةً منهم لحضارة الغرب ومدنيته الزائفة .

قد مضى على تأليفي لهذا الكتاب عشرون سنة ، كما قلت آنفاً ، واني جد متأسف أن ما انهال عليّ في هذه المدة من الاعمال المهمة المتنوعة لم يترك لي المجال ، على رغم ودي، لأراجع النظر في هذا الكتاب وأكمله بمعنى أن أضم اليه ماجد خلال السنوات الاخيرة من المعلومات عن أحوال الغرب وما جرياته وخاصة مايتعلق منها بشؤون المرأة ، حتى يأتي اليومَ

في طبعته العربية وافياً بالمقصود التام وسارداً للوقائع والامثلة متسلسلة من الاول إلى هذه الساعة . بيد أنه إذ لا فرق ـ من حيث المبدأ على الاقل ـ بين ما بينت في هذا الكتاب من الاسس والمناهج للحياة الغربية وبين الاسس والمناهج التي تجري فيها اليوم ، وهي هي بذاتها سوى أن قد تجلى للدنيا اليوم من نتائجها الوخيمة وثمراتها المسمومة ما كان خافياً على بعض الناس إلى الامس ، وأرجو أن يستطيع كل من له إلمام بأحوال الغرب واطلاع على شؤون المرأة فيه ، إذا تابع البحث على نحو ماسقته في هذا الكتاب ، ان يستكمل الكتاب ويجعله متناولاً للموضوع إلى هذه الساعة بمعلوماته نفسه .

على أني قد عالجت هذا الموضوع نفسه ـ موضوع الحياة الاجتماعية ـ في تفسيري لسورة النور ، فعلى من أراد التفصيل المزيد لأحكام الشريعة الاسلامية وتعاليمها في باب الحياة الاجتماعية ، أن يراجع ذلك التفسير ، فانه عسى أن يجد فيه من تفاصيلها ما قد لا يجده في هذا الكتاب ، وإني على ثقة من أنه إذا قرأ هذين الكتابين معا ، فانه قلما يحتاج إلى كتاب آخر لمعرفة أحكام الشريعة وتعاليمها في الحياة الاجتماعية .

★ ★ ★

الحقيقة أنني كنت منذ عدة سنوات ماضية أتمنى لو نقل إلى اللغة العربية كتابي « الحجاب » و « تفسير سورة النور » ، حتى أتمكن بهما

من إبلاغ رسالتي إخواني أبناءَ البـلاد العربية ، وذلك أني كنت أشعر بواسطة الجرائدوالمجلات التي كانتترد علينا من مصر وغيرها من البلاد العربية بأن المرأة في البلاد العربية قد بلغت من اعتدائها لحدود الشريعة وانسياقها وراء تيار الحضارة الجديدة درجةً ربما لم تبلغها المرأة حتى في بلادنا نحن ؛ فكنت لكل ذلك أجد في نفسي من القلق والاضطراب ما قد طالما أقض عليّ مضجعي وأجرى الدموع من عيني . ثم انه لما قدّر لي قبـل عامين ونصف زيارة بعض البلاد العربية وهناك شاهدت بعيني ما بلغه حقاً تبذل المرأة العربية المسلمة وتبججهـا بالعري والفتنة وشدة ولوعها باقتفاء آثار أختها الغربية ، ازددت قلقاً واضطراباً أكثر من ذي قبل .

★ ★ ★

اننا ، مسلمي باكستان والهند ، مازلنا نرزح تحت نير الاستعمار البريطاني طيلة مدة ١٩٠ سنةمتوالية (١) . ففي جانب اشتدت علينا وطأة الاستعمار وضغطه واضطهاده إلى هذا الحد ، وفي الجانب الآخر كان ، ولا يزال ، ٩٩٪ ـ ان لم نقل أكثر ـ من أفرادنا على جهل تام باللغة التي بها نزل القرآن والسنة،وما لديهممن وسيلة للارتواء منمنهلها الصافي بصفة مباشرة ، حتى ان الذين يمكن القول عنهم أن لهم نظرة في علوم القرآن

(١) بدأ استيلاء الانـكليز علينا سنة ١٧٥٧ م ولم نتحرر من سلطتهم السياسية إلا سنة ١٩٤٧م .

والسنة ، لا يتمكنون من قراءة القرآن بلغته وفهم أحكام الرسول ﷺ بالفاظه إلا بعد أن ينفقوا جزءاً غير يسير من سني حياتهم في تعلم اللغة العربية . ولكن بالرغم من هاتين الظاهرتين فان حضارة أهل الغرب ومدنيتهم لم تتغلغل في بلادنا ولم تؤثر في حياتنا مثل ماقد تغلغلت في بلاد العرب وأثرت في حياتهم في مدة لاتكاد تذكر بالنسبة لامتداد وطأة الاستعمار علينا ، وخاصة أن النساء في بلدنا ، وان كنا دائماً نسكب الدموع على انجرافهن في تيار الحضارة الغربية ، فانهن على جملة علاتهن ومساوئهن يربأن بأنفسهن أن يرتدين الملابس الافرنجية حتى أن اللاتي يرتدينها منهن من الممكن أن نعدهن على الانامل ، وقلما توجد واحدة من الف امرأة تتبرج في الطرق والاسواق وتتعرض للرجال وجسدُها مكشوف فوق كعبيها أويداها مكشوفتان إلى منكبيها ، واني والله كثيراً ما أسائل نفسي أن اخواننا العرب الذين قد شرفهم الله تعالى ببعثة رسوله فيهم ومنهم ، والذين لغتهم لغة القرآن والسنة ، والذين لا يعوقهم شيء عن معرفة أحكام الله ورسوله في كل شأن من شؤون حياتهم إذا شاؤوا ، ماذا عساهم يؤولون به رواج الملابس الافرنجية البحتة في نسائهم وتدرجهن في الاسواق والاندية والمجامع ، بل وسواحل البحار ومسابح الملاهي كاسيات كعاريات ؟ نعم ، إني لا أنكر ما بين العلماء من الخلاف حول جواز كشف المرأة وجهها لغير محارمها ولا ألزم غيري أن لا يرى في هذه المسألة غير رأيي ولكن . . . ياليت شعري ما هو الدليل على جواز كشف المرأة ساقيها إلى الركبتين ويديها إلى المنكبين وجزءاً عظيما من

صدرها وظهرها وخاصرتها ثم تجوالها ـ هكذا ـ في الطرق والاسواق تتعرض للرجال وتغشى الاندية والمجامع المختلطة وتبرز مفاتنها في كل واد بكامل زينتها ؟ وأما ان كانت الحقيقة أن لادليل على جواز كل ذلك ولا تأويل له ، فقل لي بالله أليس هو بخروج سافر على الشريعة الإلهية واستهزاء علني بأحكامها يُرتكب اليوم في بلاد العرب ـ اسـرة النبي وقبيلته ـ على مرأى ومسمع من علمائهم وكتابهم وقادة الرأي والفكر منهم ! ولا أدري ـ والله ـ ماذايتوقع القوم أن يبرئوا به ذمتهم في محكمة الله العليم الخبير يوم القيامة ؟.

والله نسأل أن يتقبل منا هذه الجهود المتواضعة بقبول حسن ويجعل نياتنا وأعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أبو الأعلى المودودي

★ ★ ★

ماهي المسألة

من مسائل التمدن البشري المعقّدة وأعظمها خطورة وإعضالاً ، مسألتان يتوقّف على حلّها المستقيم المتّزن رقي الانسانية وسعادتها . وقد حار العلماءُ في إيجاد حلٍ لها منذ قديم الزمان ، ولا يزالون حائرين في شأنها إلى اليوم . أما المسألتان ، فأولاهما صلةُ ما بين الرجل والمرأة وكيفية توطيدها في الحياة الاجتماعية ، فإن هذه العلاقة أساسُ التمدن ومِلاك أمره ، وإن اعوجّ هذا الاساس أو مال عن الاستقامة قليلا ، فلا خير في بناء التمدن الذي ينهض على هذا الاساس المعوج . والمسألة الثانية تتعلّق بما بين الفرد والجماعة من العلاقة . فانه إذا حدث شيء يخل بالاتّزان والتناسق المنشود فيما بينها من الأواصر والصلات ، بقيت الانسانية تتجرّع مرارته وتذوق وباله قروناً متعاقبة .

ففي جانب هاتان المسألتان وخطورتها ، وفي جانب آخر إنهما قد بلغتا من التعقد والإعضال أن لا يقدر على حلّها إلا من أوتي نظرة ثاقبة في حقائق الفطرة البشرية بأسرها ، محيطة بجوانبها . ولقد صدق من قال : إن الانسان عالمٌ أصغر في حدذاته فهذه بنيته وهيئة نفسه وقواه ومواهبه

ورغباته وحاجاته، وكذلك عواطفه ومشاعره وعلاقته بما وراء شخصه من ألوف الأدوات والأشياء وتأثيره فيها وتأثره بها . . . هذه كلها تحتضن عالماً بنفسه لا تنتهي عجائبه ولا يُدرك كُنْهه بسهولة . فلا يمكن أحداً أن يدرك حقيقة الانسان ويعرف سرّه إلا إذا تبيّن وتوضّح أمام عينيه كل جانب من هذا العالَم الأصغر . ومن الظاهر البيّن أنه لا يمكن إيجاد حل أو حلول لمسائل الحياة البشرية الأساسية إلا بعد أن يُدرك كنهُ الانسان وتُعرف حقيقته معرفة تامة .

وهذه هي المعضلة التي ما زالت ولا تزال تكلّ عنها جهودُ العقل والحكمة كلها وتُظهر عجزها عن استجلاء وجه الحقيقة منها . وذلك أن الانسان لم يُدرك بعد حقائقَ العالم كلها ، ولم يبلغ علمٌ من العلوم البشرية غايته من النضج والكمال حتى يصحّ القول بأنه قد أحاط بجميع الحقائق التي تتعلّق بموضوعه وتنتمي إليه. زد على ذلك أن الحقائق التي قد ظهرَت وبرَزتْ للعين . تبلغ من الدقّة والسَعة والعُمق أن لا يمكن أن يحيط بها بشر ، بل طائفة من البشر في آن واحد . فإن لاح منها جانب ، بقي الجانب الآخر مختفياً عن الأنظار ، فتارةً لا تكاد العين المبُصرة تنفذ إلى أعماقها وطوراً تصبح الميول الشخصية حجاباً دون إدراك الحقيقة . ولهذا العجز المضاعف تخفق جميع الحيل والتدابير التي يختارها الانسان نفسه لحلّ هاتيك المسائل في حياته ، وتُظهر التجارب نقصَها في آخر الأمر . والحل الصحيح لا يمكن إيجاده إلا بعد ما يدرك

المرء نقطة الاعتدال التي تستقيم بها الأمور . ونقطة الاعتدال هذه لا يمكن إدراكها إلا بعد أن تكون جميع نواحي الحقائق المعلومة على الأقل ـ إن لم نقل الحقائق كلها ـ معروضة على الأنظار . مرتّبة على نسق واحد . ولكن قل لي بالله ، من أين لك هذه النقطة الوسط إذا كانت سعة الآفاق والمناظر في درجة لا تقدر أن تحيط بها الابصار البشرية ، ثم إذا كان لرغبات النفس ونوازعها وعواطفها وميولها من التأثير البالغ في تفكير الانسان مايصرف بصره عن الحقائق الماثلة للعيان ؟ إن كل حل يوجد في مثل هذه الحال لابد أن يتسم بإفراط أو تفريط .

بين يدينا الآن المسألة الأولى من المسألتين اللتين تقدم ذكرهما ، وهي وحدها مناط بحثنا في هذا الكتاب فإذا راجعنا بطون التاريخ الغابر واستنطقنا صفحاته بهذا الشأن، وجدنا الأمر في غلبة من العجب.. رأينا سلسلة من الإفراط والتفريط جارية في جميع أدوار التاريخ وبين الأمم كلها . ففي جانب نرى أن المرأة التي تلد الرجل وترضعه وتربّيه وهي أم؛ وتكون شريكته في الحياة تشاطره البؤس والرخاء وهي زوج ؛ قد اتّخذوها خادماً بل أمَةً ، تُباع وتُشترى محرومة من جميع حقوق الإرث والملك ، وزعموا أنها مجموعة من الذل والإثم . فلا يَدَعون لشخصيتها ومواهبها فرصة للنموّ والارتقاء . وفي جانب آخر نرى أن تلك المرأة نفسها قد عظّموها تعظيماً وأكبروا من شأنها إكباراً تتبعه موجة عنيفة من فوضى الاخلاق وانحطاط الآداب ، فيتّخذها الرجال مطيّةً لأهوائهم ويجعلون منها حبالة الشيطان في واقع الامر . وهنالك

تأخذ الانسانيـة في التردّي والهبوط كلّما تـدرجت المرأة في الترقّي والظهور في هذه الجهة .

وهذان الطرفان المتناقضان لا نسمّيهما بطرفي الإفراط والتفريط في لغة النظريات فحسبُ ، بل إنّ التجاربَ إذ جمعَتْ لنا نتائجَها الوخيمة وعرَضتْها مجتمعـةً على أنظارنا ، فاننا نسمّي أحـد الطرفين بالإفراط والآخر بالتفريط في لغـة الأخلاق أيضاً . والسياق التاريخي الذي قـد أشرنا إليه آنفاً يدلّنا كذلك على أن أمة من الأمم حينما تخرج من ظلمات الجهل والهمجية وتتقدّم إلى ميدان المدنية والحضارة ، ترافق رجالَها نساؤهم كالخَدَم والاماء ، ولا يعوقها ذلك عن الرقّي والتقدّم في حلبة التمدن في أول الأمر ، لما فيها من قوى البداوة الفطرية الفعّالة . ولكنها تشعر بعد أن تقطع مرحلة من مراحل الرقي المدني أنها لا يمكنها التقدُّم إلى الأمام وشَطْرٌ كامل من كيانها في مثل هذا الانحطاط والتقهقر . فتشعر بعقبة في سبيل رقّيها المدني وتُحسّ بمسيس الحاجة إلى إعـداد هذا الشطر الثاني من بنيتها لمسايرة شطرها الفعّال في ركب الحضارة ، والنهوض بأعباء التمـدن . ولكنها إذا أرادت أن تتـدارك ما فاتها من العناية بتهذيب المرأة وتثقيفها ، لا تقف عند حد ، بل تمضي في هذه الجهة تتقدّم وتتخطّى كل الحدود ، حتى تنجرّ حريّة المرأة إلى انهيار نظام الأسرة ـ الذي هو أساس التمـدُّن ـ وينفجر بركان من الفحشاء والفجور ، لاختلاط الرجال بالنساء وتـكاد الخلاعة والاستهتار يأتيان بنيان الأمـة الخلقي من القواعد . ولا جرم أن يتبع هذا التدهورَ الخلقي الانحطاطُ

والتقهقرُ في القُوى الجسدية والمواهب الفكرية والمادية . والأمة إذا وصلت إلى مثل هذا الانحطاط في نواحي الحياة كلها، فمصيرها إلى الهلاك والانقراض لا محالة .

ومن دواعي الأسف أن المقام لا يتسع لضرب الأمثلة الكافية من ما جريات التاريخ ، إلا أنه لا بد من عرض بضعة أمثلة لإيضاح المسألة وشرحها .

اليونان

أرقى الامم القديمة حضارةً وأزهرها تمدناً في التاريخ هم أهل اليونان . وفي عصرهم البدائي كانت المرأة في غاية من الانحطاط وسوء الحال من حيث نظرية الاخلاق والحقوق القانونية والسلوك الاجتماعي جميعاً . فلم تكن لها في مجتمعهم منزلة أو مقام كريم . وكانت الأساطير (mythology) اليونانية قد اتخذت امرأة خيالية تسمّى « باندورا » (Pandora) ينبوعَ جميع آلام الانسان ومصائبه، كما جعلت الأساطيرُ اليهودية حوّاءَ : العينَ التي تنشق منها جداول الآلام والشدائد . وغير خاف على أحد ما كان لهذه الاسطورة اليهودية الشنيعة عن حواء من تأثير عظيم في سلوك الأمم اليهودية والمسيحية قِبلَ المرأة ، وما كان لها من مفعول قويّ في حقول القانون والاخلاق والاجتماع عند هؤلاء الشعوب وكذلك أو دونه بقليل كان تأثير الاسطورة اليونانية عن

(باندورا) في عقولهم وأذهانهم . فلم تكن المرأة عندهم إلا خلقاً من الدرك الأسفل ، في غاية من المهانة والذلّ في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية . وأما منازل العزّ والكرامة في المجتمع ، فكانت كلها مختصة بالرجل .

وبقي هذا السلوك قبل المرأة في أول عهدهم بالنهضة المدنية ثابتاً على حاله ، ربما تخلّلته تعديلات قليلة . فانه كان من تأثير ذيوع العلم وانتشار أنوار الحضارة أن ارتفعت مكانة المرأة في المجتمع وأصبحت أحسن حالاً وأرفع منزلةً من ذي قبل ، وإن بقيت منزلتها القانونية على حالها لم تتبدّل. فهي أصبحت ربّة البيت ، منحصرة واجباتها في حدوده ، وأصبح لها في داخله سلطة ونفوذ تامّ . وكان عفافها وتصوّنها من أغلى وأنفس ما يُملَك ، ومما يُنظر إليه بعين التقدير والتعظيم . وأيضاً كان الحجاب شائعاً في البيوتات العالية . فكانوا يبنون بيوتهم على قسمين : قسم للنساء وآخر للرجال . وما كان نسوتهم يشاركن في المجالس والأندية المختلطة ولا يبرزن في الأماكن العامة . وكان يُعدّ زواج المرأة وملازمتها لزوجها دون غيره من أمارات النجابة والشرف. ولأمثالها كانت الحرمة والمنزلة في المجتمع . وبالعكس من ذلك كانوا ينظرون إلى حياة العهر والدعارة نظرة كره وازدراء .. هذا في عصر كانت الأمة اليونانية فيه في إبان مجدها وعنفوان شبابها وقوتها ، وكانت تنمو صُعُداً إلى الرقيّ والكمال . ولا ريب أنه كانت توجد عندهم مفاسد خلقية في ذلك العصر

إلا أنها كانت منحصرة في نطاق محدود . وذلك أن الرجال لم يكونوا يُطالَبون بمِثْلٍ من العفاف وطهارة الاخلاق وزكاء السجيّة كانت تُطالَب بها المرأة وتؤاخذ عليها ، بل كانوا يُستثنون من التخلّق بتلك الاخلاق الحسنة ، ولم يكن من المتوقّع منهم أن يعيشوا عيشة ذوي العفاف والحشمة. ومن أجل ذلك كانت المومسات جزءاً من صميم المجتمع اليوناني لا ينفكّ عنه أبداً ، ولا يُعاب المرء إذا عاشرهن وخادنهن .

ثم جعلت الشهوات النفسيّة تتغلب على أهل اليونان ويجرف بهم تيّار الغرائز البهيمية والأهواء الجامحة ، فتبوأت العاهرات والمومسات مكانةً عاليةً في المجتمع لا نظير لها في تاريخ البشرية كله ، وأصبحت بيوت العاهرات مركزاً يؤمه سائر طبقات المجتمع ، ومرجعاً يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة . فكانت شموساً في سماء العلم والأدب يدور حولها كواكب الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ وما عداها من الفنون . . . بل أصبحن القطب الذي تدور حوله رحى الأمة اليونانية فما كنّ يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب بل كانت المشاكل السياسية أيضاً تُحلّ عُقَدها وتُفكّ معضلاتها بحضرتهنّ وتحت إشرافهنّ . وقد بلغ بهم التعسّف في هذا الشأن أن كانوا يرجعون في المسائل الرئيسية التي تعلو بها أمةٌ وتسفل وتحيى لها وتموت، إلى المرأة التي ربما لا ترضى أن تعاشر رجلاً بعينه أكثر من ليلة أوليلتين . ثم زاد أهلَ اليونان حبهم للجمال وتذوّقهم المفرط له تمادياً في الغيّ وارتطاماً في حمأة الرذائل ، وأضرم في قلوبهم ناراً للشهوت لا تخمد فالتماثيل ـ نماذج الفن العارية ـ التي كانوا

يتظهرون بها وبالافتنان في صنعها وإتقانها ذوقهم هذا، كانت هي التي تحرّك فيهم الشهوات دَوْماً وتمدّ في غرائزهم البهيمية. ولا يخطرلهم ببال أن الاستسلام للشهوات شيء ذميم في قانون الأخلاق والاندفاع وراء تيّار الاهواء عار وهجنة. وتبدّلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حدٍّ جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم لا يرون في الزنى وارتكاب الفحشاء غضاضة يُلام عليها المرء ويُعاب. وأصبح عامّتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظرة من لا يهتمّ به ولا يرى إليه من حاجة. فلمّا يرون بأساً بأن يعاشر الرجل المرأة ويخادنها علناً من غير عقد ولا نكاح فكانت النتيجة أن خضعت لأخلاقهم وغرائزهم الشهوانية هذه ديانتُهم أيضاً، وانتشرت فيهم عبادة افروديت (Aphrodite) التي كان من قصتها عندهم في الاساطير (Mythology) أنها خادنت ثلاثة آلهة مع كونها زوجة إله خاص. وأيضاً كان من أخدانها رجل من عامة البشر علاوة على تلك الآلهة. ومن بطنها تولّد كيوبيد (Kupid) إله الحب، نتيجة اتّصالها بذلك الخدن البشري. وما رأيك في أخلاق أمة وانحطاطها المعنوي والخلقي اتّخذت من هذه الطباع (Character) رمزاً للكمال بل إلهاً يُعبد ويقدم له جميع آداب العبودية والذل والخنوع ؟ هذه، ولاريب، درجة من الانحطاط الخلقي إذا تردت فيها أمة، لم تتمكن من النهوض مرة أخرى. وفي مثل هذا العصر البالغ من الانحطاط أسّس له ظهرت في الهند (بام مارك) وفي إيران (المزدكية). وأيضاً في مثل هذا العصر نفسه أصبحت الفحشاء والدعارة يُنظر اليها بعين التقديس والإجلال في (بابل)

فلم تمض على ذلك عشية أو ضُحاها حتى آل أمرها إلى الانقراض، وأصبح أمرها من خبر كان وأمس الدابر. ولما انتشرت عبادة افروديت في اليونان، أصبحت مواخيرُ الدعارة وأماكن الفجور مركزاً للعبادة وأصبحت المومسات متنسكاتٍ وخوادم للمعابد. وعظُم شأن الزنى إلى أن ألبسوه كساءاً من العمل الديني المبرور.

ثم ظهرت الغريزة البهيمية في أهل اليونان بمظهر آخر، هو أن انتشرت فيهم سَوءة قوم لوط انتشاراً كاد يأتي على الأخضر واليابس، ورحبت بها الديانة والأخلاق أيضاً. ومما هو حريّ بالذكر أننا لا نرى لهذه السَوْءَة المنكرة أثراً في عصر هو ميروس وهسيود، ولكنه لما ترقت المدنية وأخذت في تزيين العري واتباع الشهوات بالاسماء الجذابة كالفن وتذوّق الجمال (Aesthatic Taste) التهبت الغرائز الشهوانية في القوم التهابا جعلهم يتنكبون الطريق الفكري، ويتخذون لإرواء غليل شهواتهم طريقاً تأباه الفطرة وتمجه الطباع السليمة. وساعدهم على ذلك حُذّاق الفن بإبراز هذه العاطفة في التماثيل. وشهد علماء الاخلاق عندهم بأن هذه (العلاقة) آصرة للصداقة وثيقة بين الرجلين. واليونانيان اللذان هما أول من عظّمتهم الامة وأكرمتهم ببناء تماثيلهم هما: هرموديس وارستوجيتن اللذان جمع بينهما ذلك الحب المنكر الذي تأباه الفطرة البشرية.

وبعد، فالتاريخ شاهد بان أن اليونان لم يكن من نصيبهم المجد والرقي بعد ذلك مرة أخرى.

والذين تسنّموا ذروة المجد والرقي في العالم بعد اليونانيين، هم الرومان. وفي هذه الامـة أيضاً نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط التي قـد شاهدناها في اليونان فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلمة الجهل، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة ، كان الرجـل رب الاسرة في مجتمعهم ، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده ، بـل بلغ من سلطته في هذا الشأن ان كان يجوز له حتى قتل زوجه في بعض الاحيان .

ولما تخففت فيهم سَورة الوحشية وتقدموا خطوات في سبيل المدنية والحضارة، تخففت القسوة في تلك السلطة وجعلت الكفة تميل الى الاستواء والاعتدال شيئاً فشيئاً ، وإن بقي نظام الاسرة القـديم ثابتاً على حاله . وهؤلاء لم يكن الحجاب عندهم معمولاً به ـ كاليونان ـ في إبان مجـد الجمهورية الرومانية ورقيها. لكنهم كانوا قيدوا النساء والشباب عامة بقيود مثقلة من نظام الاسرة . فالعفاف كان شيئاً يُنظَـر اليه بعين الإجلال ولا سيما في شأن النساء ، وكان يعدُّ مقياساً للشرف وكرم المحتد . وكذلك كان مستوى الاخلاق عندهم عاليا . ومن أمثال ذلك أن اتفق ذات مرة أن عضواً في مجلس الشيوخ قبّل زوجَه أمام ابنته . فغضب عليه القوم وحكموا على صنيعه بأنه غض من كرامة الخلق القومي وإهانة له وأمضوا قرار النكير (Vote of Censure) عليه في مجلس الشيوخ . هذا وما كان مباحاً عندهم ولا مرضياً في أخلاقهم أن يتعاشر الرجل والمرأة بدون

عقد مشروع . وما كانت المرأة تتبوأ مكانة العز والكرامة في المجتمع إلا بأن تكون أماً لأسرة (Matron) . والمومسات ، وإن كانت طبقتهن موجودة وكان للرجال نوع من الحرية في مخادنتهن ، إلا أن عامة الرومان وجمهورهم كانوا يزدرونهن وينظرون اليهن نظرة احتقار وتعيير . وكذلك ما كانوا ينظرون بعين الاستحسان إلى الرجال المخادنين لهن .

ثم أخذت نظرية الرومان في النساء تتبدل برقيهم وتقلبهم في منازل المدنية والحضارة . وما زال هذا التبديل يطرأ على نظمهم وقوانينهم المتعلقة بالاسرة وعقد الزواج والطلاق ، إلى أن انقلب الامر ظهراً لبطن ، وانعكست الحال رأساً على عقب فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدني Civil Contract فحسب ، يتوقف بقاؤه ومضيه على رضا المتعاقدين ، وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلا . ومنحت المرأة جميع حقوق الارث والملك وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطة عليها للأب ولا للزوج . ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشؤون معايشهن فحسب ، بل دخل في حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومي على مسير الايام . فكن يقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة ، مما يعود به أزواج المثريات من النساء عبيداً لهن في ميادين العمل والواقع . ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلا جعله شيئاً عاديا يلجأ إليه لأتفه الاسباب . فهذا (سينكا) الفيلسوف الروماني الشهير (٤ ق.م - ٥٦ م) يندب كثرة الطلاق ويشكو تفاقم خطبه بين بني جلدته ، فيقول : « انه لم يعد الطلاق اليوم شيئاً يندم عليه أو يستحيا منه في بلاد الرومان . وقد بلغ من كثرته

وذيوع أمره أن جعلت النساء يعددن أعمارهن بأعداد أزواجهن . »
وكانت المرأة الواحدة تتزوج رجلا بعد آخر وتمضي في ذلك من غير حياء . وقد ذكر مارشل (٤٣-١٠٤م) امرأة تزوجت عشرة رجال وكذلك كتب جوفينل (٦٠-١٤٠ م) عن امرأة تقلبت في أحضان ثمانيـــة أزواج في خمس سنوات . وأعجب من كل ذلك وأغرب ما ذكره القديس جـــروم (٣٤٠ — ٤٢٠ م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها وكانت هي أيضاً الزوجة الحادية والعشرين لبعلها .

ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمـة بين الرجل والمرأة من غير عقد مشروع . وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنى شيئاً عادياً . فهذا كاتو Cato الذي أسندت إليه الحسبة الخلقية سنـة ١٨٤ قبل الميلاد ، يجهر بجواز اقتراف الفحشاء في عصر الشباب . وذاك شيشرون Cisro المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ويشير باطلاق العنان لهم في هذا الشأن. ولا يقتصر الأمر عليهما، بل يأتي ابيكتيتس Epictetus الذي يعد من المتصلبين في باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين Stoics فيقول لتلاميذه مرشداً ومعلماً : « تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج استطعتم ، ولكنه لا ينبغي أن تلوموا أحداً أو تؤنبوه إذا ما لم يتمكن من كبح جماح شهواته . »

ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا

الحد ، اندفع تيار من العري والفواحش وجموح الشهوات . فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعري المشين . وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء. ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات وانجذبت إليها نساء البيوتات . وتمادى الأمر في ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص في عصر القيصر تائي بيريس (١٤ - ٣٧ م) لمنع نساء البيوتات من احتراف مهنة المومسات وصناعتهن النافقة . ونالت مسرحية فلورا Flora حظوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوي على سباق النساء العاريات . وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء في مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد . أما سرد المقالات الخليعة والقصص الماجنة العارية فكان شغلا مرضياً مقبولاً لا يتحرّج منه أحد ، بل الأدب الذي كان يتلقّاه الناس بالقبول والرضى هو الذي يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف ، وهو الذي تُبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرةً غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات .

فكان من انغماسهم في الشهوات البهيمية ومجاوزتهم الحد في إيجاد طرق لإطفاء أوارها أن دالت دولة الرومان وتمزّق جمعها كل ممزق .

اوربة المسيحية

ثم جاء عصر النصرانية في أوربة ، وأرادت أن تتدارك الفوضى الخلقية في عالم الغرب بالعلاج الناجع والبلسم الشافي . ومما لا ريب فيه أنها